35 - السيدة كبشة بنت رافع

قصة إسلام عائلتها

اسمها كبشة، والدها رافع بن معاوية، وابنها سعد بن معاذ سيد الأوس، تزوَّجت معاذ بن النعمان وكان من ثمرة هذا الزواج: سعد، وعمرو، وإياس، وعقرب، وأم حزام.

أسلمت كبشة وأختاها الفريعة - أو الفارعة - وسعاد وهي أم النقيب أسعد بن زرارة، فيكون سعد ابن خالته، ولكن من أية الطرق دخلت نسمات الإسلام إلى قلوب هؤلاء، فأمسوا بفضلها سعداء؟

كان وفد من أهل المدينة قد خرج إلى مكة لأمرٍ ما والتقى الوفد فيها برسول الله ﷺ، ولما حدَّثهم عن الإسلام، وتلا فيهم بعض آيات القرآن الكريم أسلموا جميعاً، ولما أرادوا العودة إلى بلدهم سألوا رسول الله ﷺ أن يرسل معهم أحد أصحابه ليفقِّههم في الدين، ويعلِّمهم الإسلام، ويقرأ فيهم القرآن.

واختار رسول الله ﷺ شاباً ذكياً واعياً شديد الحماسة لنشر الإسلام، وإعلاء رايته، ذلكم هو السفير المقرىء مصعب بن عُمَيْر الذي هجر أمه ذات الثراء الواسع، وآثر الفقر، وأعرض عن طيبات الحياة الدنيا الفانية حبّاً لله ولرسول الله ﷺ والتماساً لنعيم الآخرة الباقية، ونزل مصعب ضيفاً على أسعد بن زرارة أحد وفد المؤمنين.

وبدأ الناس يؤمُّون دار ابن زرارة ليتعلَّموا من مصعب مما علَّمه الله ورسوله ﷺ.

وذات يوم خرج أسعد ومصعب إلى بستان يتفيآن ظلاله، ويتحدثان إلى الناس، ولما أخذا مكانهما في ظلاله راح يقصدهما بعض الناس، ويجلسون إليهما ورأى ذلك سعد بن معاذ وأسيد بن حُضَير، قال سعد لصاحبه: أرأيت يا أُسيد إلى هذين الرجلين؟ لقد أتيا ديارنا، ليفسدا أبناءنا، وسيجر ذلك علينا الشر، لذلك أريد أن تذهب إليهما وتطردهما، وحمل أُسيد حربته وتوجَّه إلى مجلس مصعب بن عُمَيْر فلما وقف عليهم ألقى وابلاً من الشتائم، ولكن مصعب العاقل المهذب الذي صقل الإسلام سلوكه قال له: ألا تقعد فتسمع؟ فإن سرك ما سمعت قبلته، وإن ساءك كففنا عنك ما تكره، وانصرفنا، فقال أسيد: ما عدوت الإنصاف، هاتِ ما لديك.

ثم ركز حربته وقعد، ولما تلا مصعب على مسامعه بعض آيات القرآن الكريم، أشرق وجهه بالبشر والسرور، وامتلأت نفسه بالفرحة والحبور، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وما أجمله!! كيف يصنع من أراد الدخول في هذا الدين؟ فقال له مصعب: اذهب واغتسل، ثم طهِّر ثيابك، وعد إليَّ.

وانطلق أُسيد إلى داره فصنع الذي طلبه مصعب ثمَّ عاد بعد قليل والماء يقطر من رأسه فعلمه أن يشهد شهادة الحق ويصلي ركعتين، وبات أسيد في عداد المسلمين.

ثم حمل أسيد حربته، وعاد إلى سعد وهو في نادي قومه، فلما دنا منه قال له سعد: أحلف أنك عدت بغير الوجه الذي فارقتني به! ثم قال له: ماذا صنعت؟ قال: أمرتهما بترك المكان فلم يعارضا، فقال سعد: إنك لم تصنع شيئاً، ثم أخذ منه الحربة، وتوجَّه إلى مجلس مصعب فلما وقف عليه أطلق بعض الشتائم فقال مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن سرك ما سمعت قبلته ورضيته، فبها ونعمت، وإن ساءك ابتعدنا عنك بما تكره، وانصرفنا، فقال سعد: أنصفت، فهات ما عندك.

ثم ركز حربته وقعد ولما تلا مصعب على مسامعه بعض آيات القرآن الكريم أشرق وجهه وقال: ما أحسن هذا الكلام وما أجمله!! ما يفعل من

أراد أن يدخل في هذا الدين؟ فقال له مصعب: اذهب واغتسل، ثم طهِّر ثيابك، وعد إليَّ.

وانطلق سعد إلى داره فنفَّذ رغبة مصعب ثمَّ انقلب إليه والماء يقطر منه فعلمه أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلي ركعتين، وأضحى سعد أحد المسلمين.

ثم أخذ الحربة وقصد نادي قومه، فلما اقترب منهم، قالوا: نحلف أنك عدت إلينا بغير الوجه الذي غادرتنا به، ونظر إلى أُسيد فأدرك أنه لم يكن يريد أن يخبره عما دار بينه وبين مصعب حتى يسمع بنفسه، ثم التفت إلى قومه، وقال لهم: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأياً، فقال لهم: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، فما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا وقد أسلموا جميعاً.

وكانت أم سعد أول اللواتي أعلنَّ إسلامهنَّ، وأدركت أن واجبها يفرض عليها أن تسهم في نشر هذا الدين بين نساء الأنصار، ونفَّذت ذلك.

محبتها وآل بيتها للجهاد

وكانت كبشة أم سعد وآل بيتها يؤمنون أن الإيمان لا يكمل بغير الجهاد، وأن على كل مسلم أن يحدِّث نفسه به.

حَدَّثَ عُبَيْدَةُ، عَنْ حُمَيْدٍ الطَّوِيلِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ مَخْرَجَهُ إِلَى بَدْرٍ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ اسْتَشَارَ عُمَرَ فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ فَقَالَ بَعْضُ الأَنْصَارِ: إِيَّاكُمْ يُرِيدُ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذ: تَسْتَشِيرُنَا يَا نَبِيَّ اللهِ؟ إِنَّا لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا

فَنَعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، وَلَكِنْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَهَا إِلى بَرْكِ - قَالَ ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ: إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ - لاتَّبَعْنَاكَ[1].

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال: يا رسول الله، لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وقد أعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً! إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشَّطه ذلك، ثم قال: «**سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ القَوْمِ**».

أمّ الشهداء

وخرج مع سعد بن معاذ يوم بدر أخوه عمرو بن معاذ، وعادا إلى أمهما كبشة بالنصر المبين، وكانت فرحة عمَّت بيوت المسلمين، وخزياً على أعداء الله والدين، واستقرَّ زعماء الشرك في قليب بدر، ولكن قريشاً تداعت إلى دراسة أوضاعها بعد فقدها لصفوة رجالها وخيرة فرسانها، فأجمعت أمرها على الثأر لهم والانتقام لهم، وراحت تدعو القبائل العربية لمساعدتها في القضاء على المسلمين، حتى لا يلحق بهم أذاهم كما لحق بها، ولما أتمَّت استعدادتها، جعلت الموعد في أُحد، وخرج سعد بن معاذ وأخوه عمرو بن معاذ مع رسول الله ﷺ إلى أُحد، ورُزق عمرو الشهادة مع عددٍ من المؤمنين الذين اتَّخذهم الله شهداء، وكان الذي قتله ضرار بن الخطاب.

كان رسول الله ﷺ قد أمر الرماة يوم أُحد أن يحموا ظهور إخوانهم من

---

(1) رواه: أحمد/كتاب: باقي مسند المكثرين/باب: مسند أنس بن مالك ﷺ/برقم: (12486).

مواقعهم في قمة الجبل، وألَّا يغادروها مهما يكن سير المعركة، غير أنهم حين وجدوا المشركين - سواء منهم من قُتل أو من لاذ بالفرار - قد ملأوا الأرض بأسلابهم تركوا مواقعهم، وتبادروا إلى الغنائم، فانقضَّ عليهم من خلفهم خالد بن الوليد وكان على فرسان المشركين يومئذٍ، وأعمل فيهم القتل.

وقد أشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قُتل فدبَّت الفوضى بين صفوف المسلمين، ولاذ بعضهم بالفرار، وأحاطت ثلة من الصحابة برسول الله ﷺ جاعلين من أنفسهم تروساً لتقيه من أية ضربة من جهة العدوِّ، وكان من أبرز هؤلاء سعد بن معاذ رضي الله عنه.

وكانت هند بنت عتبة قد وعدت عبداً حبشياً يقال له وحشي بن حرب بجائزة مجزيةٍ إن هو قتل لها حمزة بن عبد المطلب ثأراً لأبيها عتبة بن ربيعة وعمها شيبة بن ربيعة وأخيها الوليد بن عتبة الذين قتلوا يوم بدر.

وأخذ وحشي يراقب تحرُّك حمزة وحربته جاهزة في يده حتى إذا أيقن بالإصابة سدَّدها إليه بقوة، فاستقرت أسفل بطنه في جسده الطاهر، وسقط سيد الشهداء صريعاً؛ فأسرعت هند إلى جثته فبقرت بطنه، واستخرجت كبده، ثم قضمت مضغة منها ولاكتها ولكنها لم تُسِغها فلفظتها، ومثَّلت بجثته أبشع تمثيل فَصَلَمَتْ أُذُنيه، وَجَدَعَتْ أنفه.

وقد سقط في المعركة عدد آخر من الشهداء من أبرزهم المقرىء السفير مصعب بن عُمَيْر وكان هو الذي يحمل لواء المسلمين، وقد قتله ابن قميئة وهو ينافح بسيفه عن رسول الله ﷺ، واستُشهد النقيبان سعد بن الربيع، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وآخرون كعمرو بن الجموح، وحنظلة الغسيل.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما فُعل بعمه حمزة بكاه وحزن له، وحين عاد إلى المدينة راحت النساء تبكي قتلاها، وقد روى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِنِسَاءِ عَبْدِ الأَشْهَلِ يَبْكِينَ هَلْكَاهُنَّ يَوْمَ

أُحُدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَكِنَّ حَمْزَةَ لا بَوَاكِيَ لَهُ**» وَطَرَقَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ مَسَمِعَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَتَوَجَّهَ إِلَى دُورِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ وَأَمَرَ نِسَاءَهُنَّ أَنْ يَذْهَبْنَ لِيَبْكِينَ حَمْزَةَ، فَاسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**وَيْحَهُنَّ! مَا انْقَلَبْنَ بَعْدُ؟ مُرُوهُنَّ فَلْيَنْقَلِبْنَ وَلاَ يَبْكِينَ عَلَى هَالِكٍ بَعْدَ الْيَوْمِ**»[1].

دعاء النبي ﷺ لها

وكانت كبشة أم سعد بين الباكيات، ولما أُخبر رسول الله ﷺ أن نساء الأنصار يبكين حمزة، قال: «**رَضِيَ اللهُ عَنْكُنَّ وَعَنْ أَوْلادِكُنَّ**»، وواسى رسول الله ﷺ كبشة بابنها عمرو فقالت: يا رسول الله، أما إذا رأيتك سالماً فقد أَشْوَتِ[2] المصيبة، ثم قال رسول الله ﷺ للنسوة المجتمعات على بكاء حمزة: «**ارْجِعْنَ، رَحِمَكُنَّ اللهُ، لَقَدْ وَاسَيْتُنَّ مَعِي، رَحِمَ الأَنْصَارَ، فَإِنَّ المُوَاسَاةَ فِيهِمْ مَا عَلِمْتُ قَدِيمَةٌ**».

وقال رسول الله ﷺ: «**يَا أُمَّ سَعْدٍ، أَبْشِرِي، وَبَشِّرِي أَهْلِيهِمْ أَنَّ قَتْلاَهُمْ قَدْ تَرَافَقُوا فِي الجَنَّةِ جَمِيعاً، وَقَدْ شُفِّعُوا فِي أَهْلِيهِمْ**»، فقالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟!!، ثم قالت: يا رسول الله، ادعُ لمن خُلِّفوا، فقال: «**اللَّهُمَّ أَذْهِبْ حُزْنَ قُلُوبِهِمْ، وَاجْبُرْ مُصِيبَتَهُمْ، وَأَحْسِنِ الخَلَفَ عَلَى مَنْ خُلِّفُوا**»، فما أجمل بُشراك يا أم سعد! إنها جنة عرضها السموات والأرض أُعدّت للمتقين!!

اهتز عرش الرحمن لموت ابنها

ويوم الخندق كان دور ابنها الثاني، فقد أُصيب سعد، وقد روى ذلك

---

(1) رواه: ابن ماجه/ كتاب: ما جاء في الجنائز/ باب: ما جاء في البكاء على الميت/ برقم: (1580).

(2) أشوَتِ: هانت.

الإمام أحمد بتفصيل عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ قَالَ: أَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ قَالَتْ: خَرَجْتُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَقْفُو آثَارَ النَّاسِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الأَرْضِ وَرَائِي - يَعْنِي: حِسَّ الأَرْضِ - قَالَتْ: فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّهُ، قَالَتْ: فَجَلَسْتُ إِلَى الأَرْضِ فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ سَعْدٍ، قَالَتْ: وَكَانَ سَعْدٌ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، قَالَتْ: فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ، وَيَقُولُ:

لَيْتَ قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا جَمَلْ مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الأَجَلْ

قَالَتْ: وَيَرْمِي سَعْداً رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ الْعَرِقَةِ بِسَهْمٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْعَرَقَةِ، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهُ، فَدَعَا اللهَ ﷻ سَعْدٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ قُرَيْظَةَ قَالَتْ: وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ وَمَوَالِيَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، قَالَتْ: فَرَقَى كَلْمُهُ.

وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَضَعَ السِّلاَحَ، وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَضُرِبَتْ عَلَى سَعْدٍ فِي الْمَسْجِدِ وَقَامَتْ رُفَيْدَةُ الأَسْلَمِيَّةُ بِتَمْرِيضِهِ.

وَحِينَ نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَضُوا أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى سَعْدٍ بَعْضَ قَوْمِهِ لِيَأْتُوهُ بِهِ مِنْ خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ الأَسْلَمِيَّةِ.

فَأُتِيَ بِهِ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا عَمْرٍو، خُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ، قَالَتْ: وَأَنَّى لا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً، وَلا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورِهِمْ الْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: قَدْ آنَ لِي أَنْ لا أُبَالِيَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احْكُمْ فِيهِمْ يَا سَعْدُ**» قَالَ سَعْدٌ: فَإِنِّي أَحْكُمُ

فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ ﷻ وَحُكْمِ رَسُولِهِ**»[1].

وفي رواية أنه قال له: «**يَا سَعْدُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**»[2].

ثم انتقض جرح سعد فمات، فصاحت أمه، فقال النبي ﷺ: «**كُلُّ بَاكِيَةٍ تَكْذِبُ إِلا أُمُّ سَعْدٍ**»، ثم قال لها: «**أَلا يَرْقَأُ دَمْعُكِ، وَيَذْهَبُ حُزْنَكِ؟ فَإِنَّ ابْنَكِ أَوَّلُ مَنْ ضَحِكَ اللهُ إِلَيْهِ وَاهْتَزَّ لَهُ الْعَرْشُ**».

ثم لحقت كبشة بولديها بعد حين، رحم الله كبشة أم سعد، ورحم شهيديها عمراً وسعداً وشهداء المسلمين.

(1) رواه: الإمام أحمد/كتاب: باقي مسند الأنصار/باب: باقي المسند السابق/برقم: (23945).

(2) أرقعة: جمع رقيع، وهو السماء.